

المشرق

رحلة حديثة الى صنا الحجر والمنزلة

للأب المفلان الحوري لوسيان لودوا

كنت منذ ثلاث سنين تريل برت سعيد وانا لا ازال اترقب الزمن الموافق لزيارة آثار مدينة جليّة تكرّر ذكرها في الاسفار المقدّسة وأتخذها فراعنة مصر مراراً كقاعدة لمملكتهم ألا وهي طانيس المعروفة اليوم بصان الحجر حتى تيسّر لي الامر منذ عهد قريب ففرت بالمرام وذلك في فصل الصيف من سنة ١٩٠١

فبعد ان اتخذت لتتمة المقصود كلّ الاعلامات اللازمة واعدت الالهة للسفر طلبت لي رفقة اسير وأياهم الى صان فأسعدني الحظ بان لقيت خمسة من ادبا. التزلة اثنان منهم من مستخدمي شركة قناة السويس ثم المسيوب. وولداه فرنسوا وارنست. وكان احد الملاحين الاعراب اسمه الرئيس عيد وعدنا بان يأجونا لهذه السفرة قارب زكبه من محطة كربوتى الى صان. وكان هذا القارب كبيراً في مؤخره غرفة يمكننا ان نقضي فيها الليل

فلما كان اليوم المعهود ركبنا القطار من برت سعيد ومعنا من الزاد ما يكفي لثلاثة أيام وتسلّحنا ببندقيتين او ثلاث واخذنا معنا اداتين للتصوير الشمسي. فابشنا ان وصلنا الى محطة كربوتى وهي قرية صغيرة على ضفة بحيرة المنزلة. فكان اول اهتمامنا بان نسأل عن الرئيس عيد فلم نقف له ولقارب على اثر. بيد انه لحسن طالعنا وجدنا هناك

ذهبية لأعرايين كانت على وشك السفر الى دمياط فأقنعنا صاحبها بان ينقلانا الى صان بأجرة معلومة فرضيا وسرنا على الطائر الميمون . وكان سفرنا على بحيرة المزلة جنوبياً بجملة الى الغرب . وهذه البحيرة تمتد طولاً في مسافة نحو مئة كيلومتر اماً عرضها فيختلف . وكانت سابقاً تبلغ مدينة بلويزة القديمة ولا يفصلها عن البحر سوى كشبان من الرمل والبحر مع ذلك يتصل بها فتدخلها مياهه المالحه من فوهتين او بوغاصين . واذا نقص النيل واشتد القيظ هبطت مياه البحيرة حتى ان القوارب لا تقطعها الا بالعناء لقلة الماء . اماً اذا فاض النيل رأيت بحيرة المزلة طاغية تشغل مياهها نحو ١٢٠٠ كيلومتر مربع لا يطفو فوق المياه سوى بعض جزائر عليها آثار قديمة وكان في موقع هذه البحيرة سابقاً بلاد عامرة وجنأت فيحاء غمرتها مياه بحر المحيط فصارت بحيرة متسعة الافناء ولم ينبج من طغيان هذه المياه الا امكنة قليلة لعلو تربتها منها جزيرتا تنيس وتونة

وقد ورد ذكر هذه البحيرة في مروج الذهب للمسعودي فروى خبرها وهو يدعوها بحيرة تنيس قال :

« كانت بحيرة تنيس ارضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وثروة وكانت جناً ونخلًا وكروماً وشجرًا ومزارع وكانت فيها مزارع على ارتفاع من الارض ولا احسن اتصلاً من جناها وكروها ولم يكن بمصر كورة يقال انها تشبهها الا القيوم ولا اخصب واكثر فاكهة ورياحين من الاصناف الغربية وكان الماء منعدياً بها لا ينقطع عنها صيفاً ولا شتاء يسقون منه جناهم اذا شاوروا وكذلك زروعهم وسائرهم يصب الى البحر من سائر خلجانهم ومن الموضع المعروف بالاشنوم وقد كان بين البحر وبين هذه الارض نحو مسيرة يوم . . . فلم يزل البحر يزيد ماؤه ويعلو ارضاً فارضاً في طول على ممر السنين . . . فلما مضت لديقليطانوس من ملكيه مائتان واحدى وخمسون سنة (اعني سنة ٥٣٢ م) هجم الماء من البحر على بعض المواضع التي تسمى اليوم بحيرة تنيس فاغرقها وصار يزيد في كل عام حتى اغرقها باجمعها فما كان من القرى التي في قرارها غرق واما التي كانت على ارتفاع من الارض فبقيت منها تونة وبسمود وغير ذلك مما هي باقية الى هذا الوقت »

وكان سيرنا في البحيرة بين جزيرتي تنيس وتونة شمالاً وبلدة المطرية الحافلة بصيادها مينا حتى وصلنا بعد نحو خمس ساعات مدخل نهر المعز وهو الخليج المعروف في الازمنة السالفة بخليج صان (branche tanitique) وهذا النهر في وقت ارتفاع النيل كثير المياه يتسع مينا وشمالاً فيغمر بمياهه ارضاً واسعة . اماً في فصل الصيف فتقل

مياهه وينحصر في حدود ضيقة. ومياهه عند مصبه في بحيرة المزلة لا تصلح للزراعة لاختلاطه بالمياه المالحة. وأما ترى فقط على ضفتيه بعض الاعشاب كالاسل والتصب وبعد ان واصلنا السير مدة بلغنا الى حيث ينقسم نهر المغز قسمين وكلاهما يصلح للملاحة ولتقل السلع وكان سفرنا على القسم الشمالي وهو الذي يوصل بين الرقازيق والصلاحية وصان والمطرية فينقل بينها صادرات مصر ووارداتها. وكنا لا نلتقي في طريقنا الا بعض زوارق للعراب يسلم اهلها علينا اذا راونا مجلبة عظيمة فنقابلهم بالمثل وبعد ساعة من الزمان بلغ بنا المسير الى المزدردات التي تزين هذه الجهات وهي كلها خصبة يغلب عليها الارز والقطن وضروب الحبوب تراها تنبسط كخيمة على جانبي النهر الى مسافات بعيدة وراءها رمل الصحراء. ولم تزل صاعدين النهر الذي كان صقيلا كمرآة وهو يسع حيناً ويتزوي حيناً آخر في ضمن حدوده وتارة يتشعب شعباً فتبرز من وسطه جزائر خضراء رائعة المنظر. وبينما كنت اعين هذه المشاهد العجيبة اذ لاح لي من سطح السفينة ضحاح من المياه ترىة بقع خضراء وادواح الشجر بينها اعشاب طويلة فسألت صاحبي القارب: «ما اسم هذه البحيرة» فاجابا: ليس ثمت بحيرة ولا مياه ولا اشجار إنما هذا السراب. فعرفت اني مخدوع كما خدع قبلي كثيرون من اهل الاسفار. ثم جعلت اسرح الطرف نحو الآفاق فلا ترى عيني الا الرمال الجرداء. وبقينا كذلك حتى اصيل النهار فرأينا عند الافتق تلاً مرتفعاً ظهر لنا في وسط تلك البادية القفرة كأنه سلسلة جبال. فسألت الملاحين: او هذا الجبل ايضاً من ظواهر السراب. قالوا: كلاً لكنه ليس بجبل وإنما هو تل صان الذي نقصده. فشخصت عيوننا نحو تلك الآكام لعلنا نميز شيئاً من اخربة المدينة التي عاش فيها موسى كليم الله. الا ان التل كان بعيداً يقتضى لقطع المسافة الباقية لبلوغه خمس ساعات على الأقل

فاسبل علينا الليل ستره قبل ان ندرك صان الحجر الا ان البدر طلع بعد قليل واثار النهر باسفته الفضية وكسا المزدردات بنوره الكمد فانبعث امامنا عالم جديد اغرب من ظواهر السراب كانت مناظره تحجب عقولنا وتسبي ألبابنا. ولم تزل ابصارنا ترى هذه المشاهد الفتانة حتى بلغنا في جوف الليل قرية صان الحجر بعد اربع عشرة ساعة من السير المتواصل. والقرية على ضفة النهر عند سفح التل. فرست ذهبتنا عند

طرف الضيعة حيث يتصل بالنهر اسفل اطلال التلّ وردومهُ غائصةً في المياه
وما ادركنّا صان حتى شمرت بنا كلابها واخذت بالنباح فايقظت جلبتها القرويين
فقدم علينا بعضهم ليروا ما الامر ولما علموا انّ قدومنا لسلام هدأت الثأمة وعاد القوم
الى بيوتهم . ركان هناك يوناني صاحب تزل دعانا لتقضي الليل في فندقه فايّنا وآثرنا
النوم في الدهيئة لكنّ عينيّ لم تكتحل باغتاض
ولما تبأج الصبح سمعت صوتاً في مياه النهر فرأيت واذا بفتاتين من صان تغتسلان
قبل طلوع الفجر فذكرني ذلك بفتاة فرعون التي خلّصت في هذه الامكنة موسى الطفل
من الفرق

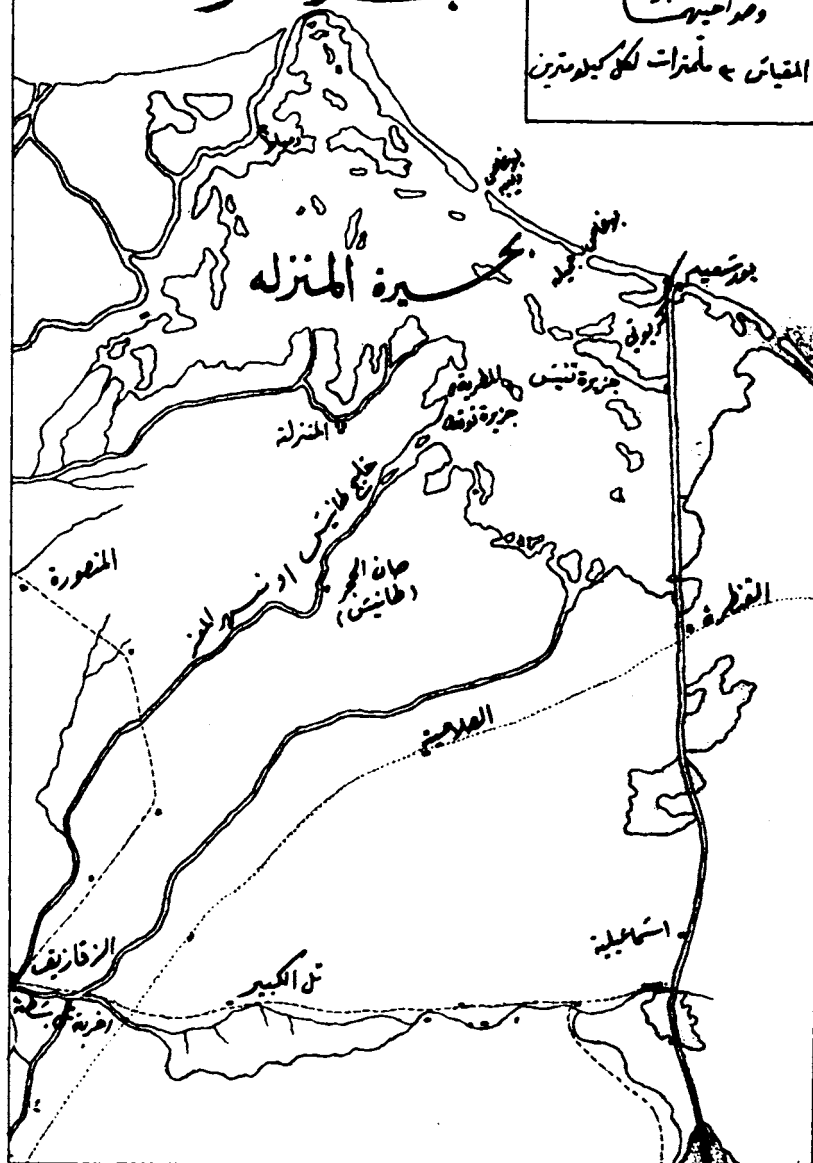
ثم ايقظت رقتي فرقينا معاً التلّ باكراً لنبلغ قته قبل طلوع الشمس . فكنا نسير
في طريق غبراء محمرة التربة تتكوّن من دقائق الآجر حتى وصلنا بعد مدّة الى
انقاض وبقايا جدران متداعية وآثار اعمدة ومسلّات وقائيل ودُمى ابي الهول وكلّ
ذلك خلط ملط في حالة يرثى لها . ققطعنا هذه الآثار دون ان نتلبّث في فحصها
والبحت عنها لئلا يفوتنا منظر طلوع الشمس . وكانت طريقنا فوق هذه الاطلال
حرجة صعبة المرتقى أدّت بنا بعد قليل الى ذروة التلّ اهتدينا اليها ببناء من الحجر
المنحوت يُرى هناك فانظرنا بقرب هذه البناية بزوغ الشمس

وكان اديم السماء صافياً لا يشوبه بخار او سحابة فوجّهنا الابصار الى الشرق فلم
يلبث قرن الشمس ان يذرّ فيجلّ بانوارهِ الساطعة كل البقاع التي حولنا . ولم يزل ملك
النهار يتصاعد شيئاً فشيئاً حتى ظهر بكل جلاله منيراً بسراجهِ الوهاج حاضرة الفراعنة
التي اصبحت اليوم اثرّاً بعد عين وخراباً بعد عمران فبقينا هنيهة لا نفوه بنت شفة
وكُلّنا عيون شاخصة تكاد تلتهم هذه المناظر التهاماً

ثم جعلنا نتجوّل فوق مشارف التلّ فاذا هو يسّسع عرضاً ويستطيل الى جهة
الجنوب . وكان مع احد رقتي . ميزان تعريف العلوّ فرصده فاذا هو يدلّ على ثلاثين
متراً بكسر . وكانت سهول طائيس القديمة تمتدّ عند اقدامنا فتذكرنا ما جرى فيها من
الضربات العشرّ بما ورد في الكتاب الكريم (المزمر ٧٧ ع ١٢) حيث قال : وضع
(الربّ) المعجزات امام آباؤهم في ارض مصر في بقعة صوعن (٦٣٥) . وصوعن هي
صان او طائيس . وقد كرّر ذلك في المزمر عينه (ع ٤٣)

البحر المتوسط

خارطة بحيرة المنزلة
وحام البحر
وقواحيها
المقياس : مقياس الكيلومترات



ثم حاولنا النزول من هذا الجانب فما تمكنا من الامر الا بعد العناء والمشقة وكانت ارجلنا تغوص في تراب عميق ضارب الى الصفرة يدخله قطع من الحواف والزجاج المكسر وكل التل على هذه الصورة

وان سأل السائل أوبلغت صان هذا العظم والأتساع حتى ان اخرجتها صارت عبارة عن جبل؟ اجبنا مع العلامة مسبرو: «ان مدينة صان لم تكن ذات شان اذ ان مجمل ابنتها كان منحصراً في دائرة تشمل بعض البيوت المتوسطة البناء كان يسكنها اعيان البلد وعُمال فرعون. وكنت ترى على رُبى قليلة الارتفاع تتركب من ردوم سابقة عدة ابنية اشبه باكواخ خفيفة متلاصقة ببعضها لا يفصلها الا ازقة ضيقة وكلها من اللبن الجعف في الشمس او الآجر. تلك كانت مدينة صان. وأما كان لها هيكل عظيم الشأن شاقق البنيان تتجه نحوه كل حركة السكّان لما يُقام فيه من المناسك الدينية لاكرام آلهة المصريين والتل يتركب بالخصوص من بقايا هذا الهيكل الفخيم». على ان من نظر الى الآثار الباقية من صان وهيكلها لا يتألك من العجب لرويق هذه العاصمة وحضارتها وعظم ملوكها

وبعد ان أجلنا الطرف في كل هذه المآثر وفكّنا الحيلة باحياء سالف الاعصار وذكر قاعدة القرائنة على عهد بني اسرائيل تولنا من التل لنبحث عن الاخرة التي اجتروا بها صباحاً دون ان نتأملها. وما يمكننا ان نقول عنها بوجه الاجمال ان هذه الآثار قد استولى عليها الدمار فلم يبق منها الا حطامها. وذلك قول يصح في جميع آثار وادي النيل كتل بسطة وبلوزة وطانيس بخلاف عاديّات الصعيد فإن يد الدهر لم تُصّبها بكبر اذى. أما هيكل صان فتري بقاياها مجندلة محطّمة في حيص بيص فتعثر رجلك تارة بصف من نحيت الحجارة وتارة بردوم من الانصاب والمسلات القديمة وحيناً بقطع من التماثيل الضخمة او الاشخاص المحيطة ابا الهول وكل ذلك باختلاط لا يفي به الوصف وهي في اسوأ حالة لا يمكن الناظر ان يتحقّق ما كانت عليه هذه الآثار في أوّل تنصيبها

ومأ حظناهُ بقايا إله جبّار منحوت بحجر الصوّان المانع فرأُسُهُ قد قُطع من شلوه وكذلك ترى ذراعيه وساقيه مكسورتين وضخمه عجيب ألو كان سالماً لعدّ شيئاً في كبره بدمى الالهة التي تُرى في منف والاقصر. وعندنا ان هذا التمثال هو الشخص

الذي امر باصطناعه رمسيس الثاني من حجر واحد وجعله من اكبر تماثيل مصر وفوق ربوة ليس بعيداً عن هذا الأثر تُرى مسئة كبيرة ممتدة على الحضيض وهي مكسورة الى قسمين . يبلغ طولها من ١٨ الى ٢٠ متر وعرض كل وجه من وجوها الاربعة نحو متر ٦٠ ستمتراً . وعلى احد هذه الوجوه مكتوب بالحروف الهرغليفية اسم رمسيس الثاني والقابه فيدعى فيه : « ملك الشمال والجنوب » راع أسرمات سوتيب ان راع ، ابن الشمس رمسيس صديق عمون وملك الارضين . وعند خلف المسلة نُقشت صورة الملك وهو يقدم قرباناً لاله طُلمست سحتة

وعلى مسافة بعض خطوات من هذه المسلة مسئتان أخريان على شبه الاولى في كبرها وهما كذلك مكسورتان في وسطهما وعندهما تماثل آخر عظيم لكنه لم يُحطَم كالتمثال السابق وصفه . وتُرى في حجره صورة امرأة صغيرة القامة منعوتة في الحجر نفسه . وليس بعيداً من هذه الدمية تماثل ثالث اصغر منهما وهو حسن النقش سالم في قسمه الاعلى اما سُوقه فقد كُبرت . وعلى صدره شعار رمسيس الثاني . له هيئة كهيئة تماثل سقارة الشهير

وفي شمالي هذا الشخص استلفت انظارنا حجر من الصوان الاحمر منقور على شكل صندوق وهو تاووس او مصلى صغير تكسر احد اطرافه فيرى داخله وهو منقوش وعلى كل وجوه كتابات وتصاوير فاخذت رسمه بالتصوير (ص ١٨٥) . وقد مثل فيه الملك رمسيس ثلاثاً قراءه يقدم القرابين للاله اتوم او تمو اي الشمس قبل بزوغها وللاله خبزي اي الشمس الطالعة وللاله هورس بن اوزيريس . وجعل الاله اتوم في الوسط وعلى رأسه الاكليل المزدوج اشارة الى ملكه على مصر العليا وعلى وادي مصر وفي يده اليمنى رمز الحياة وفي شماله الصولجان . وبازانه الملك رمسيس يزين هامته ايضاً الاكليل المزدوج تراه يقدم لمعبوده تقدمه وهي طلعة على شكل مخروط كالهرم . وامام الاله قد كُتب « تموسيد اون » واون هي مدينة عين شمس . وعند اقدام الملك ما نصه : « تقدمه خبز سمين لينال الحياة من الاله » واسم الملك والقابه مدونة امامه ووراءه فيقرأ امامه : « سلطان الارضين » راع أسرمات سوتيب ان راع (لقب الملك) رمسيس . ومن ورائه قد كُتب : « ملك الصعيد ومصر السفلى » راع أسرمات سوتيب ان راع ، ابن راع رمسيس تموسيد اون »



ناورس (٧٥٥٤) او مصلى رعميس الثاني في طانيس (راجع الصفحة ٤٨٢)

وعلى اليمين رُسمت صورة رعميس متوج بالتاج الملكي امام الاله هورس يقدم له اثنان وعلى راس الاله يورى قرص الشمس مع شعار الاله راع. وجسم الاله كجسم انسان اما راسه فراس باشق وهو يسكن في بيتاء رمز الحياة وفي يسراه صولجان الملك وبازائه قد كُتب: «هورس إله الارضين سيد السماء». اما الملك فاسمه والقابله كما في الصورة السابقة ألا انه قد بُدِل اسمه «تمو سيد اون» باسم «صديق هورس» وفي جهة الشمال صُوِّر الاله خبري (اي الشمس الطالعة) على هيئة بشرية فرأسه مكشوف تلووه دائرة الشمس معلقة فوقه. وامامه الملك رعميس يقدم له اثنان. وبقية التصاوير والكتابات لا تختلف شيئاً عن صورة اليمين

وفوق هذه الصور الثلاث على طول الناورس كتابة درس اولها وآخرها فلم يبق منها سوى ما ترجمته: «...تمو قربان للاله تمو من قبل السلطان ملك الشمال والجنوب راع أمر مات سوتيب ان راع ابن راع صديق عمون رعميس لا زال ملكك زاهياً نامياً الى الابد»

وفي سطح الناورس من اعلاه خمس كتابات تنتهي كلها بهاتين اللفظتين
 «رعميس الحمي»
 هذا ما بقي سليماً من آثار صان. وليس الباقي كما سبق القول ألا كسرًا وشتقًا
 لا يُترَك منها نصبٌ كامل
 (لُه بَقِيَّةٌ)

أقدم شعر عند العرب

لحظة ألكاتب العالم والباحث المتفَنِّ الاب انتاس الكربي

اطلعتني بعض الاصدقاء على المجلد التاسع من مجلَّة الهلال. وبينما كنت اتصفحُه
 وقمتُ فيه على مقالة لصاحب المجلة في أُمِّية بن ابي الصلت وقد افتتح ترجمة هذا
 الشاعر الجاهلي بلمعة عن حالة العرب واقتمهم قُبيل الاسلام فقال حرسُه الله (عن الهلال
 ١٤١٩:٤):

«لم يَمُرْ بجزيرة العرب على عهد الجاهلية عصر خض فيه العرب مثل خضتهم في القرن السادس
 للميلاد. وهو القرن الذي تقدَّم ظهور الاسلام. وكانوا قُبيل ذلك غارقين في الجهالة والحمول
 لا يعرفون غير الفزو والقتل. وخصوصاً في بلاد الحجاز فاننا لم نسمع فيها قبل ذلك القرن إلا بيضة
 شعراء ولم يكونوا محمدين. فاشعر شعراء الجاهلية نبغوا في القرن السادس وما بعده. ويؤخذ من
 مراجعة تراجم اولئك الشعراء ان الشعر العربي رَما أولاً في اليمن ثم في الحجاز ونجد لأنَّ اقدم
 من وصل بنا اخبارهم انما هم من اليمن كالبراق ولَبْلَى العفيفة وكلاهما من اهل القرن الخامس وهما
 اقدم شعراء الجاهلية» انتهى المقصود من ابراده.

قلنا: لا نعلم على ما يدعم حضرة منشيء الهلال كلامه في قوله الاخير: «ويؤخذ
 من مراجعة... الخ» فان كان زعمه هذا منقولاً عن أدباء الافرنج فاننا قد بحثنا في
 كتبهم التي بايدينا لتتدبَّر صِحة القول فلم نتوفَّق الى العثور على ما عثر ولعلَّ السبب
 في ذلك قلة الاسفار الافرنجية التي بايدينا. ألا اننا وان سلَّمنا ان المؤلف اخذ كلامه
 عن الافرنج فانه لا يخلو من مغامز وليس كل ما يقوله هؤلاء الباحثون يكون بمغزل عن
 الانتقاد. امَّا اذا كان كلامه مأخوذاً عن كتبه العرب فان هؤلاء لسان واحد على
 مخالفتهم. وقد رأينا غير مرَّة ان حضرة صاحب الهلال كثيراً ما يقع على بعض الامور